مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة

نوعية التقمصات لدى الأشخاص الذين عاشوا صدمة نفسية في مرحلة المراهقة

أ . محند سمير أ .د إسماعيلي يامنة جامعة مسيلة

ملخص:

إن تعرض الفرد لأحداث خارجية قوية، فجائية و مهددة لحياته يُثير سياقات نفسية داخلية تتسبب في تحطيم دفاعات الأنا، فينجم عن ذلك صدى نفسي يعجز عن احتماله، مما يؤدي الى تغير واضح على التوظيف النفسي، و في سبيل تجاوز تلك الآثار يعتمد الفرد على مكتسباته النفسية، عندئذ يتوقف مصير شخصيته على مدى مرونة أو هشاشة التقمصات التي بناها و التي تسمح للفرد بالتكيف مع الواقع الداخلي، ثم التفاعل الجيد مع العالم الخارجي الموضوعي، غير أن معايشة تلك الأحداث خلال المراهقة باعتبارها فترة نمو غير مستقرة، يميزها عمل نفسي شاق في سبيل إرصان تغيرات البلوغ و الجسد يجعل من أثرها النفسي أكبر.

اتجهنا في هذا العمل العيادي الميداني نحو تسليط الضوء على الآثار النفسية على الأشخاص الذين عاشوا تجربة صدمية خلال فترة المراهقة، سلكنا المنهج العيادي مع استخدام المقابلة العيادية و رائز تفهم الموضوع TAT الذي يسمح لنا بتقييم الدفاعات النفسية و معرفة نوعية التقمصات، و خلصنا في الأخير الى أن اللقاء مع واقع الموت أظهر لديهم أعراض تكرارية و سلوكات التجنب، مع تصورات صدمية تحمل معاني الخوف والشك و اللاأمن ، و تقمصات نفسية تتسم بالهشاشة.

الكلمات المفتاحية : التقمصات– الصدمة النفسية– المراهقة .

إشكالية البحث:

يعيش الإنسان في عالم مليء بالأحداث الخارجية التي يمكن أن تشكل خطرا يهدد حياته أو حياة الآخرين، فيكون لها تأثيرا صدميا على توظيفه النفسي، و لأن فكرة الموت لا تظهر في اللاشعور، تأتي الصدمة لتبني ذلك اللقاء مع واقعها، فهي لقاء مع العدم الذي يُظهر للفرد الصورة الصدمية ، وأكبر صدمة يمكن أن يتلقاها الفرد هي المواجهة المفاجئة مع الموت، و التي تزيل عن موته الشخصي فكرة التأجيل وتدفعه للتفكير في احتمال وفاته في أي لحظة من لحظات حياته.

فالإنسان كثيرا ما يكون محاطا بكم كبير من الإستثارات المتواصلة، من هنا كانت الفكرة بوجود ذلك الجهاز المسمى بصاد الإستثارات le pare excitations الذي يحمي الجهاز النفسي من فيض الإستثارات ويسمح بالتواصل مع العالم الخارجي[1]، و لكن رغم هذا فقد يتعرض الفرد لأحداث قوية وشديدة و تتميز بعنصر الفجائية، تهاجم الجهاز النفسي فتحطم صاد الإستثارات محدثة شرخا كبيرا وهو ما يحدث في الصدمة النفسية، عندئذ يجد الفرد نفسه في حالة من العجز، فالأنا غير قادر على الدفاع ضد تلك الإستثارات الشديدة، ضف الى ذلك فان الطبيعة الفجائية للحدث لا تترك وقتا كافيا للنظام النفسي للإنذار والمتمثل في القلق ليقوم بوظيفة تعبئة العمليات الدفاعية من أجل تسير الفائض النزوي بطريقة سوية .

إن التناول الميتاسيكولوجي الذي تبناه فرويد في دراسة الصدمة يتجاوز مجرد الإشارة الى الظروف التي وقع فيها الاضطراب، بل يرى بأن البناء النفسي الذي حققه الفرد هو الذي يحدد مدى مرونة الفرد في مواجهة الأحداث الصدمية، و هذا يجعلنا نقف على قيمة الجانب الضمن-نفسي Intrapsychique الذي تنطوي عليه الصدمة، أين يرى بيرونR Perron بأن الصدمة لا تتعلق بطبيعة الحدث فقط، حيث يمكن أن نلاحظ بوضوح بأن الحدث الواحد ينعكس بتأثيرات مختلفة على الأفراد[2].

وتبين الملاحظة العيادية بأن الأحداث الصدمية التي تواجه نفس الأفراد تخلف استجابات مختلفة لديهم، و هو ما يحيلنا الى القول بأن هناك تباين لديهم من حيث قدرة الجهاز النفسي في تصريف تلك الإستثارات، ومن ثم قدرة الفرد على مواجهة تلك الأحداث. و تختلف قدرة الفرد في مقاومة التجارب الصدمية أيضا باختلاف السن الذي تعرض فيه لتلك التجربة، فالصدمة يكون لها صدى أكبر على البناء النفسي و تترك آثارا أخطر إذا

حدثت في مرحلة المراهقة، تلك المرحلة الحساسة التي تتسم بنشاط نفسي هام و التي " تفرض على الفرد تغيرات على مستوى التوازن بين العالم الداخلي و العالم الخارجي[3]"، وخلالها " يتوجه الفرد نحو تجاوز التقمصات البدائية للوالدين ونزع الاستثمار واستثمار مواضيع جديدة[4] "، فقدرة الفرد في مواجهة الحدث الصدمي مرهون بمستوى نضج الأنا، و بمدى صدى الحدث في التنظيم الهوامي للطفل، إذ كلما كان الطفل صغيرا كان خطر إصابة نموه النرجسي أكبر[5].

و ترى النظرية التحليلية أن للبنية النفسية و قدرات الأنا الدفاعية أهمية كبيرة في الدفاع ضد الصدمات، فرغم أن البنية لا يكتمل نموها إلا في مرحلة الرشد، إلا أنها تأخذ شكلها منذ الدقائق الأولى من الحياة، تتشكل من خلال التقمصات التي تبنى مع الزمن، أين يجد المراهق نفسه في حاجة الى سلطة أبوية ليتمكن من تشكيل تقمصات جيدة تمكنه من اجتياز مرحلة المراهقة بشكل أفضل.

و لأن قيمة البناء النفسي لدى الشخص مهم للغاية عند حديثنا عن الصدمة، فهذا يقودنا الى الحديث عن التقمصات النفسية التي تقوم ببناء شخصية الفرد من خلال السياق التقمصي، و لها دور هام في إرصان العقدة الأوديبية، التي يرى التحليليون أن لها قيمة محورية في تحديد السواء و المرض، فالصحة النفسية للفرد وعلاقاته مع والديه ثم مع الآخر تتوقف على التقمصات التي قام ببناءها في مراحل سابقة من نموه النفسي، والسياق التقمصي هو من يحدد لاحقا مدى التكيف مع واقعه الداخلي و الخارجي.

و على هذا الأساس سوف نحاول أن نلقي الضوء على موضوع التقمصات لدى أشخاص عاشوا صدمة نفسية في مرحلة المراهقة، وهناك دراسات تناولت هذا الموضوع من جوانب مختلفة، أين نجد دراسة **سي موسي وآخرون 2002** التي خلصت الى وجود اختلاف بين الأطفال المصدومين و غير المصدومين، أين تميزت إسقاطات المجموعة الأولى بإدراكات تكرارية و فشل بارز للعمل الإسقاطي والإبداعي[6]، فيما توصلت دراسة **ميكيري 2008** الى أن المراهقين الذين عايشوا أحداثا صدمية ويعيشون في عائلة ذات بنية جيدة تكون لهم فرصة أكبر في تجاوز الوضعيات الصدمية[7]، ودراسة **بلعباس 2008** التي توصلت الى أن المراهقات اللواتي فقدن الأب في المرحلة الأوديبية لديهن هشاشة في التقمصات الأنثوية و الأوديبية[8].

وانطلاقا من المعطيات التي سبق ذكرها ارتأينا القيام ببحث علمي حول الموضوع فبدأنا بالتساؤل التالي:

- ما هي نوعية التقمصات لدى الأشخاص الذين عاشوا صدمة نفسية في مرحلة المراهقة ؟

و قد صغنا فرضية للإجابة المؤقتة عن هذا التساؤل و كانت كالأتي:

- يظهر لدى الأشخاص الذين عاشوا صدمة نفسية في مرحلة المراهقة تقمصات هشة.

أولا : التناول النظري لمتغيرات البحث:

1 . الصدمة النفسية:

يحتل مفهوم الصدمة قيمة هامة في الدراسات النفسية، أين نجد ثراء كبير في التناولات النظرية لهذا المفهوم، و من خلال نظرة التحليل النفسي فالصدمة لا تتعلق فقط بالحدث الصدمي و شدته و عنصر المفاجئة الذي يميزه، بل بواقع يعصف بالأنا محدثا شرخا و فجوة بين الزمن السابق و الزمن الحاضر، و المستقبل الذي يُنظر إليه على أنه توقف، فتلك الأحداث تُدخل الفرد عالم المجهول، هذا المجهول بحد ذاته يشكل مصدرا للقلق، و مما لاشك فيه فإن تلك الأحداث القوية تؤثر على الفرد فتولد ردود فعل مختلفة، و لأنها لا تتم وفق استعداد نفسي سابق، فإن الاصطدام بالواقع الداخلي يكون قويا.

مفهوم الصدمة :

الصدمة هي " تجربة معاشة تحمل معها للحياة النفسية و خلال وقت قصير نسبيا زيادة كبيرة جدا في الإثارة لدرجة أن تصنيفها أو إرصانها بالوسائل السوية تنتهي بالفشل، مما ينجر عن ذلك من اضطرابات دائمة[9]"

ظاهرة تحدث على مستوى الحياة النفسية، يكون ذلك بتأثير حوادث ذات طبيعة صدمية، تُعاش من طرف الفرد برعب، خوف وشعور بالعجز في غياب أي مساعدة، و تمثل مواجهة فجائية مع واقع الموت[10].

حسب كروك Louis Crocq1992 فهي ظاهرة اجتياح النفس من مثيرات عنيفة و عدوانية، حيث يتجاوز هذا الاجتياح القدرة الدفاعية لدى الفرد الذي تعرض لها، فتغير سيره كليا[11].

من هذا التناول يتضح بأن الصدمة هي استجابة لحدث خارجي قوي و فجائي، غير أنه لا يمكننا أن نتكلم عن أحداث صدمية بالمطلق، إذ يجب أن ننتبه الى قابلية التأثر لدى الأفراد، فلا بد من توفر شروط موضوعية كي تكون هنالك صدمة بالمعنى الدقيق للكلمة.

الفكر الفرويدي حول مفهوم الصدمة :

لقد مر تنظير فرويد حول مفهوم الصدمة بمراحل مختلفة، و هو يرى بأن أسباب الاضطرابات النفسية ترجع الى تجارب ماضية في الطفولة، فكتب في أولى أعماله دراسات حول الهستيريا 1895 بأن الصدمة ناتجة عن حدث واقعي، تقتضي حادث إغواء طفل من طرف راشد يستجيب لها الطفل بسلبية ودون تهيؤ، ثم ظهور عامل مفجر لذلك الحدث تأخذ الصدمة معناها من خلاله، إذ يقوم بتنشيط الآثار الذكروية المتعلقة بالحدث الأول و الذي قام ميكانيزم الكبت بحجبه من على ساحة الشعور، و رغم أن العامل المفجر يكون عديم الأهمية من الناحية الظاهرية، إلا أنه يقوم بإيقاظ المشهد الأول من خلال إحدى السمات التي تجمعه به، و مع تطور النظرية التحليلية تراجع التأثير السببي للصدمة باعتبارها حدث واقعي لصالح الحياة الهوامية أين رأى فرويد بأن الصدمة نتيجة حدث هوامي، فهي لا تحدث نتيجة لأثر الأحداث الطفولية سواء كانت صحيحة أم وهما، وإنما من الهوام المتكون حولها[12].

هذا التفسير الدينامي لنشوء الصدمة أعقبه فيما بعد تفسير اقتصادي ظهر من خلال المقال الذي أصدره عام 1920 و المسمى ب ما فوق مبدأ اللذة، أين فكر في وجود جهاز يحمي الجهاز النفسي من الاستثارة الخارجية أطلق عليه اسم الجهاز الصاد للاستثارة L'appareil pare excitations، و هو يقول بوجود هذا الجهاز لأن كمية الطاقة في العالم الخارجي لا توازي تلك الكمية القليلة الموجودة داخل الجهاز النفسي[13].

و يرى فرويد بأن الصدمة من الناحية الاقتصادية هي انكسار واسع لصاد الإستثارات، يظهر من خلال عدم قدرة الجهاز النفسي على تصريف فيض الاستثارة نظرا لطبيعة الحدث الشديدة و المفاجئة، عندها لا يقوم القلق بمهمة تعبئة العمليات الدفاعية بصفة ملائمة، فالجهاز النفسي يدافع ضد الرعب بالقلق وهو ما لا يحدث في الصدمة[14].

يمكننا أن نقول بأن الصدمة هي أثر تجربة معاشة تنتج عن زيادة في الإستثارات من حيث شدتها ومدى العجز الذي تسببه للشخص، و أي محاولة لخفض آثارها بأساليب مألوفة يكون مآلها الفشل.

و هنا يرى بيرون R. Perron1983 بأنه في كل حالات الصدمة هناك مفهوم اقتصادي، فنحن نتحدث عن كميات هائلة من الطاقة سببها أحداث عنيفة تفوق شدتها صاد الإستثارات، كما أن هناك حقيقة تفرض نفسها، ألا و هي أن الصدمة لا تتعلق بطبيعة الحدث فقط، حيث يمكن أن نلاحظ بوضوح بأن الحدث الواحد ينعكس بتأثيرات مختلفة على الأفراد[15].

التناول السيكاتري لمفهوم الصدمة :

تتناول الجمعية الأمريكية للطب النفسي L'APA في الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات العقلية DSM5 مفهوم الصدمة من خلال ما تسميه ب اضطراب ضغط ما بعد الصدمة PTSD، و قد صنف هذا الاضطراب مع اضطرابات القلق.

و يقتضي تشخيص هذا الاضطراب ما يلي :

- أن يكون الفرد قد شاهد أو واجه حادثا تضمن موتا فعليا أو تهديد بالموت أو الإصابة الخطيرة أو تهديد السلامة الجسدية للذات أو للآخرين، و يستجيب له الفرد بالخوف الشديد أو العجز أو الهلع.

- يظهر لدى الفرد متلازمة تكرار كنتيجة لهذا الحدث، من خلال استعادة خبرات الحادث الصادم بشكل دائم من خلال مظاهر مختلفة: ذكريات متعلقة بالحدث الصدمي، أحلام متكررة حول الحدث، التصرف و كأن الحادث سوف يتكرر و مشاعر ضيق عند التعرض لمواضيع ترمز الى أحد أوجه الحدث الصدمي.

- يُطور الفرد سلوكات التجنب: أين يظهر لديه تجنب دائم للمثيرات المصاحبة للحدث الصدمي من خلال تجنب الأفكار، الأحاسيس، الأنشطة، الأماكن والأشخاص المرتبطين بالحدث، مع عجز عن تذكر جزء هام من الحدث وأيضا شعور بالغرابة عن الآخرين و عدم القدرة على التفكير في المستقبل[16].

نلاحظ هنا أن التناولات التي تقدمها الدلائل التشخيصية تغيب عنها النظرة السيكودينامية و تركز بشكل خاص على الأعراض التي تظهر على الفرد.

2 . التقمصات :

تتكون شخصية الفرد من خلال التقمصات التي قام ببناءها في مراحل مبكرة من حياته من خلال العلاقة التفاعلية مع مواضيع الحب الأولى، هذه التقمصات تحدد مدى تكيف

الفرد مع نفسه ثم مع الآخر في حياته، فمرونة هذه التقمصات هو ما يمنح الفرد إمكانيات نفسية ثرية ليتفاعل مع عالمه النفسي الداخلي بشكل جيد ثم مع العالم الخارجي.

مفهوم التقمص :

يعرف التقمص على أنه: "عملية نفسية يتمثل الشخص بواسطتها أحد مظاهر أو خصائص أو صفات شخص آخر، و يتحول كليا أو جزئيا تبعا لنموذجه[17]".

من هنا نقول بأن التقمص يرتبط بالجانب البنائي، بناء يتم داخل الفرد لاستدخال سمات من الخارج، وهذا يقتضي سيرورة نفسية لاشعورية مستمرة لدى الفرد، هذه العملية تختلف عن التقليد الذي يعد عملية شعورية، وما يميز التقمص هو التعلق العاطفي بموضوع الحب، ثم محاولة الحصول عليه من خلال دمجه في الذات كي يصبح مثله، و يتطور السياق التقمصي لدى الطفل من خلال مراحل النمو النفسي الجنسي.

السياق التقمصي :

يبدي الطفل الصغير اهتماما كبيرا بأبيه فهو يود أن يصبح مثله، و أن يقوم مقامه من كافة النواحي، إنه يجعل من والده مثاله، وبالتزامن مع تقمص الأب يأخذ الطفل الصغير بتوجيه رغباته اللبيدية نحو الأم، فيظهر نوعين من التعلق، تعلق بالأم بصفتها موضوعا جنسيا، وتقمص الأب باعتباره نموذج يجب محاكاته والتشبه به[18].

مع الزمن يتبين الطفل أن الأب يسد عليه الطريق نحو الأم فيتصف تقمصه بالأب بطبيعة عدائية، ويتداخل في نهاية الأمر مع الرغبة في أخذ مكانه، أما بالنسبة للبنت فتوجه رغباتها اللبيدية نحو الأب وتصبح منافسا للأم، ترغب في أن تحل مكانها وترغب في الحصول على طفل من الأب[19]، وتقمص الأب بالنسبة للطفل الذكر و تقمص الأم بالنسبة للبنت، يمثل المخرج السوي الوحيد للتخلص من عقدة أوديب.

وللمرحلة الأوديبية أهمية كبيرة في تحديد مستقبل شخصية الفرد، و لطريقة حل عدة أوديب أثر هام في بناء شخصيته، " فأوديب يبني الراشد و يهيكله [20]".

عندما تتحطم عقدة أوديب يصبح الطفل مضطرا إلى التخلي عن أمه كموضوع جنسي، و في هذه الحالة ممكن أن يحدث احتمالان، إما أن يتقمص الأم و إما أن يتقمص الأب، و الاحتمال الأخير هو الذي يمكنه من أن يصبح سويا[21].

3 . المراهقة:

المراهقة مرحلة هامة من مراحل النمو لدى الفرد، نظرا للتغيرات الكبيرة التي تطرأ خلالها على جوانب مختلفة من شخصية الفرد، و هي مرحلة إعادة إحياء لصراعات الطفولة أين يجد الأنا نفسه في مواجهة تغيرات البلوغ و الجسد، هذه التغيرات التي يجب أن يدمجها في شخصيته من أجل أن يتمكن من التكيف مع الوضع الجديد، و قد نال هذا المفهوم اهتمام التحليليين فأصبح مجال خصب لأبحاثهم.

مفهوم المراهقة:

تمثل المراهقة " سيرورة نفسية تضع المراهق تحت ضغط التغيرات النفسية و الفيزيولوجية الناتجة عن البلوغ، لذلك فهو مجبر على إعادة بناء ذاته رغبة في البلوغ و البحث عن رموز جديدة للهوية [22]".

و هي تفرض على الفرد " تغيرات على مستوى التوازن بين العالم الداخلي و العالم الخارجي، ما يدفع بالمراهق إلى إعادة تنظيم التوازن بين النرجسية، العلاقة مع الموضوع، ارتباطه و استقلاليته، هذه السيرورة من شأنها أن تؤدي إلى هشاشة في العالم الداخلي[23]".

و تعتبر " منظم نفسي Organisateur Psychique، يتم من خلالها إعادة تنظيم الأنا الذي يعيش تغيرات البلوغ، مما يجعل المراهق أمام مهمة إستدخال هذا النمو الفيزيولوجي ضمن نظامه العلائقي و الليبيدي في مواجهة خطر انكسار التوازن بين استثماراته النرجسية والموضوعية [24]"، و "هي بدون شك أول مرحلة صعبة في الحياة، تقيس قوة و مدى متانة أو هشاشة التنظيم النفسي للفرد[25]".

المراهقة بين الأزمة و السيرورة :

تختلف الآراء حول مرحلة المراهقة بين من يراها كأزمة، وآخر ينظر إليها كسيرورة، فحسب إيمانويلي M. Emmanuelli ليس هنالك مراهقة دون أزمة، هذا التناول يرجع الى الخصائص التي تميزها من عنف ومشاكل يدخل فيها المراهق خلال هذه المرحلة، في حين ينظر إليها آخرون بأنها سيرورة نظرا للعمليات التي تواجه المراهق من خلال الانتقال من مرحلة الطفل الى مرحلة المراهق، و إرصان مظاهر البلوغ في شخصيته[26].

ثانيا : منهجية البحث :

تقوم الدراسات السيكولوجية على المناهج العلمية التي تمثل الأسلوب الذي يسير وفقه الباحث في عمله، و هو " مجموعة منظمة من العمليات، تسعى الى بلوغ هدف محدد، و

على مستوى ملموس فهو يشير الى طريقة تصور و تنظيم و تخطيط العمل حول موضوع دراسة ما، إنه يتدخل بطريقة أكثر أو أقل إلحاح، بأكثر أو أقل دقة في كل مراحل البحث[27]".

وقد اعتمدنا في هذا البحث على المنهج العيادي الملائم لدراسة هذا الموضوع، الذي يسمح بفهم أفضل للظواهر النفسية، وهو " يهدف إلى معرفة السير النفسي والبناء الجديد للوقائع النفسية[28]"، استعملنا في هذا البحث أسلوب دراسة الحالة الذي يمكننا من الفهم العميق للحالة ويتميز بمرونة أكبر.

1 . أدوات البحث :

استعملنا في بحثنا أداتين من أدوات جمع البيانات هما:

المقابلة العيادية نصف الموجهة: و ميزتها أنها تتناول بحرية أكبر سلسلة مواضيع انطلاقا من تعليمة واسعة تسمح بالوصول الى السيرورات النفسية، فالمبحوث بإمكانه تنظيم حديثه كما يشاء، و نحن نهدف من خلالها الى إعطاء فرصة كافية لجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات التي تخدم البحث.

و قد تعرضنا من خلال المقابلة إلى الحياة النفسية و العلائقية لدى المفحوص قبل الصدمة التي تعرض لها، ثم انتقلنا الى الحياة الحالية من حيث التصورات و الدفاعات النفسية التي يستعملها المفحوص ثم التصورات المستقبلية.

رائز تفهم الموضوع TAT : يمثل أحد أكثر الروائز الإسقاطية انتشارا و استعمالا، إذ يستخدم على نطاق واسع في العيادات النفسية من أجل التشخيص و البحث، تدور فكرته حول تقديم عدد من اللوحات الغامضة، يستجيب لها الفرد من خلال إسقاط خبراته و ميولاته و صراعاته، فحسب تعبير Anzieu et Chabert هو " بمثابة أشعة X التي تخترق أعماق الشخصية ... فيتجلى ما كان مستترا و يصبح الكامن ظاهرا، فينتقل ما كان في الأعماق إلى السطح، و يرفع الستار عما كان مستتراً [29]".

ترتبط نوعية التقمصات من خلال رائز تفهم الموضوع بنوعية مقروئية البروتوكول، ولأجل معرفة مدى مرونة أو هشاشة التقمصات، قمنا بتحليل بروتوكولات الرائز من خلال شبكة التحليل Shentoub V 1990[30]

2 . مجموعة البحث :

قمنا ببحثنا على مجموعة تتكون من حالتين، سبق و أن تعرضا لتجربة صدمية في مرحلة المراهقة، وقد ركزنا على أن يكون المبحوث قد تعرض لحدث صدمي هدد حياته أو حياة

الآخرين واستجاب لها بالرعب، وأن يكون حاليا في سن الرشد تفاديا لأي متغيرات دخيلة، لما تتميز به مرحلة الرشد من استقرار نسبي، نشير أيضا الى أن المجموعة التي قمنا بالعمل معها لم يسبق لها أن خضعت لعلاج نفسي.

ثالثا : عرض و مناقشة نتائج البحث :

. الحالة الأولى :

يبلغ من العمر 26 سنة، أعزب، مستواه الدراسي ابتدائي، عاش الحالة حادث اغتيال والده و رؤية جثته في فترة المراهقة عندما كان يبلغ من العمر 15 سنة.

تصورات المبحوث جاءت مفككة نوعا ما و تحمل وجدانات الخوف و يميزها القلق و عدم توقع الحدث الذي أضفى عليه طابع الفجائية.

حديث المبحوث عن التجربة الصدمية تميز بالكف، ما يشير الى القلق القوي الذي مزال يعيشه والذي يحول دون تحكمه في تصورات الحدث الصدمي المؤلم، ضف الى ذلك استخدام ميكانيزم الإنكار لإخفاء تأثره بالتجربة تلك، هذه الرقابة المفروضة على التعبير عن الوجدانات تهدف الى كف تدفق التصورات الصدمية المشبعة بالقلق، كما يمكن أن نلحظ تلك التكرارات التي طبعت حياته الحلمية والواقعية بعد الحدث، مع عجزه عن إدماجها ضمن التاريخ النفسي الشخصي، فيما كانت تصوراته المستقبلية تتسم بالغموض، إذ لازال يعيش الحدث مما يشير إلى محاولات الأنا استرجاع وظائفه.

الحياة العلائقية لدى المبحوث تتميز بالكف، فعلاقته بوالدته غير مرنة إذ ليس هنالك تفاعل جيد معها، و هذا ينطبق على علاقته مع العالم الخارجي، مع الرفاق و الجنس الآخر، أين يفضل أن يكون وحيدا، ويُبقي تفاعله في مجال محدود جدا.

نتائج رائز تفهم الموضوع أظهرت بأن الإنتاج الإسقاطي لدى المبحوث لا يتميز بالتنوع حيث ينحصر في سيطرة سياقات التجنب C الذي كان استعمالها مكثفا ما يدل بأن المبحوث مزال يستخدم الهروب كوسيلة دفاع ضد الصراع النفسي، و ظهور سياقات CN لتدل على البحث عن السند، و السياقات السلوكية CC لتدل على استعمال المخرج السلوكي للتفريغ، ثم ظهور سياقات الرقابة A أين يضع المفحوص رقابة كبيرة على إسقاطاته و تركيز على المحتوى الظاهري، مع ضعف استعمال سياقات المرونة B، وندرة استخدام السياقات الأولية E.

تميز البروتوكول بخطاب قصصي مفكك غير مترابط، مع ظهور قصص مبنية للمجهول تشتمل على أشخاص غير معرفين، و ساد تلك القصص كف و تقطع في سيولة التصورات مع غياب الصدى الهوامي في أحيان كثيرة، و هذا ما يمكننا من القول بأن مقروئية البروتوكول كانت سيئة.

من خلال المقابلة العيادية التي بينت بأن تصورات المبحوث تميزت بالتفكك و صعوبة استمرارها وفقرها أحيانا أخرى، و صعوبة إرصانها و دمجها ضمن التاريخ النفسي و فقر في الحياة العلائقية، ومعطيات رائز تفهم الموضوع التي جاءت لتؤكد نتائج المقابلة العيادية، حيث تحصلنا على مقروئية سيئة مع ما حمله الخطاب القصصي من ضعف في تحديد الأشخاص و جنسهم، و قصص مبنية للمجهول يتضح لنا صعوبة في الإرصان النفسي و أن نوعية التقمصات لدى الحالة هشة و هو ما يحقق الفرضية التي صغناها في البداية.

. الحالة الثانية :

يبلغ من العمر 25 سنة، أعزب، مستواه الدراسي متوسط، عاش الحالة حادث اغتيال والده فترة المراهقة عندما كان يبلغ من العمر 15 سنة.

أبدى المبحوث خلال المقابلة قلقا وأوقات كمون و كف أثناء المقابلة، مع كثرة الحركات التي كان يرفق بها إجاباته، حياته النفسية قبل الحدث كانت تتسم بالهدوء و الاستقرار، علاقاته كانت طبيعية إلا أن التجربة الصدمية التي عاشها غيرت حياته، فألقت بصداها على تنظيمه النفسي أين لم يفهم المبحوث الحدث الذي عايشه، بل واجهه بالإنكار ضمن عمل حداد شاق قام به لتجاوز التجربة، كما ظهرت لديه تصورات تكرارية في الأحلام مما يشير الى عمل الجهاز النفسي الذي يسعى الى إرصان التصورات الصدمية، غير أنه استطاع تجاوز جزء من الثقل الوجداني العنيف المتعلق بالتجربة.

تصورات المبحوث المستقبلية حملت رغبة في الاندماج في المجتمع بعد تلك الحادثة التي أدت الى انطوائه على نفسه، و كف في علاقاته الاجتماعية، هذا يدل على أن هناك عمل لإرصان تلك التجربة.

الحياة العلائقية للمبحوث كانت طبيعية قبل الحدث وعلاقاته مع والديه كانت جيدة، إلا أن التجربة ألقت بالاختلال على تفاعلاته أين اتسم سلوكه بالكف و الانطواء و اتجهت استثماراته النرجسية نحو الذات، و قد لاحظنا رغبة في استعادة ذلك الجانب العلائقي

لديه من خلال التطلع الى الاندماج من جديد، إذ أن التقمصات النفسية تحدد مدى القدرة على التكيف مع الذات ثم مع العالم الخارجي.

النتائج المحصل عليها من خلال رائز تفهم الموضوع أظهرت الاختصار الذي ميز الإنتاج القصصي لدى المبحوث كطريقة تجنب ، و ميل نحو استخدام سياقات التجنب C بشكل كبير، منها السياقات الفوبية CP، ولجوء الى السياقات النرجسية CN لتشير الى استثمار ليبيدي موجه نحو الذات، والسياقات الهوسية CM تتمحور حول الاستناد على الموضوع. ظهر أيضا استعمال سياقات الرقابة لتجنب الصراع النفسي الذي حرضته المادة الإسقاطية، و تمسك بالمحتوى الظاهري للوحات، في ضل استعمال ضئيل لسياقات المرونة B والسياقات الأولية E.

مقروئية البروتوكول كانت سيئة لعدم تنوع السياقات الدفاعية وظهور قصص ذات بناء مفكك تخللها أوقات كمون كبيرة، وتميل الى الاختصار وتشتمل أشخاص غير معرفين، مما يشير الى استجابة سيئة للوحات من طرف المبحوث.

من خلال المقابلة العيادية التي أوضحت لنا بأن الحياة العلائقية للمبحوث تتجه نحو الانطواء وعلاقات جد محدودة، مما يشير الى ضعف في التقمصات التي تحدد قوة التكيف النفسي مع الذات ومع الآخر، و قد اتضح لنا بأن حياة النفسية للمبحوث تضمنت تصورات القلق و الشك و صعوبة في إرصان التصورات الصدمية، التي كانت تتميز بالتقطع و الكف و أوقات الكمون الطويلة، جاءت نتائجها متوافقة مع نتائج رائز تفهم الموضوع أين اتسمت استجابة المفحوص للوحات بالتجنب والكف، مع مقروئية بروتوكول سيئة، وتقمصات هشة، مما يجعلنا نقول بأن الفرضية التي قمنا ببناءها في السابق قد تحققت مع الحالة الثانية أيضا.

رابعا : استنتاج عام :

إن التناول النظري الذي قمنا بعرضه فيما سبق مكننا من بناء تصور واضح حول الآثار التي تترتب عن معايشة الفرد للصدمة، من خلال تعرضه لأحداث عنيفة تتميز بالقوة و الفجائية، و التي تصيب الجهاز النفسي فتثير سياقات نفسية داخلية تغمر الجهاز النفسي، تتسبب في تحطيم دفاعات الأنا، فينجم عن ذلك صدى نفسي قد يظهر على شكل اضطرابات نفسية تدوم مع الزمن.

تلك الأحداث التي تصيب الجهاز النفسي في وقت عدم استعداد الأنا تحمل فائضا نزويا أظهرت تصورات صدمية يعجز الأنا عن احتمالها، هذا المنطلق الذي بدأنا منه جعلنا نكتشف أن لتلك الخبرة أثرا واضح المعالم على الحياة النفسية، أين يجد الفرد في مواجهة نتائجها فتؤثر على توظيفه فيجد نفسه في صراع مع مخلفاتها، عاجزا عن تحمل صداها الوجداني، فيسعى إلى استعادة مبدأ اللذة و محاولة إرصانها.

هذه التغيرات التي تخلفها التجربة الصدمية، تؤدي الى تغير واضح على التوظيف النفسي يتضاعف أثرها إن عاشها الفرد في مرحلة حساسة مثل المراهقة التي تعد سيرورة لعمل الحداد على الطفولة تظهر خلالها تغيرات البلوغ و مرحلة إحياء للطفولة، من خلال إحياء الصراعات الهوامية البدائية والتي كانت هادئة من قبل، وتضع المراهق أمام تحولات عميقة لإعادة بناء التقمصات النفسية و هيكلتها و نزع الطابع الجنسي لها، والتوجه نحو تقمصات خارج النماذج الأولية و إدماجها ضمن البناء النفسي، فإذا لم يكن السياق التقمصي قد نجح في إرصان الصراع النفسي الداخلي، فإن الأنا يكون أكثر قابلية ليتأثر أثرا بالغا عندما يعيش تجربة عنيفة تقوم بكسر دفاعاته النفسية.

فخلال المراهقة يظهر دور التقمصات في السماح بإرصان الطاقة الليبيدية الناتجة عن تغيرات البلوغ وإيجاد التناسق الداخلي، إذ كلما كانت التقمصات جيدة كلما نجح الفرد في إرصان تغيرات سيرورة المراهقة، وعلى النقيض فإن هشاشة التقمصات قد يؤدي بالمراهق إلى البحث عن سلوكات التفريغ[31].

انطلاقا من هذه المقاربة النظرية، اتجهنا الى العمل العيادي الميداني لتسليط الضوء على نوعية التقمصات لدى أشخاص عاشوا تجربة صدمية خلال فترة المراهقة، وسلكنا المنهج العيادي و باستخدام المقابلة العيادية ورائز تفهم الموضوع TAT الذي يسمح لنا بتقييم الدفاعات النفسية ومعرفة نوعية التقمصات والتصورات والصدى الهوامي التي

يستعملها المبحوث في بناء و إرصان الخطاب القصصي، أين لجانا الى دراسة مقروئية اللوحات ثم دراسة مقروئية البرتوكول بشكل عام من أجل معرفة نوعية التقمصات، هذا العمل الذي قمنا به يهدف إلى الإجابة عن السؤال الذي طرحناه في البداية:

- ما نوعية التقمصات لدى الأشخاص الذين عاشوا صدمة نفسية في مرحلة المراهقة ؟

الاستطلاعات التي قمنا بها أتاحت لنا بناء فرضية كانت صياغتها كالآتي:

- يظهر لدى الأشخاص الذين عاشوا صدمة نفسية في مرحلة المراهقة تقمصات هشة.

بناءً على البيانات المحصل عليها من المقابلة العيادية و رائز تفهم الموضوع المطبقة على مجموعة البحث التي تكونت من حالتين عاشت تجربة صدمية تتمثل في اغتيال الأب (فقدان شخص عزيز)، توصلنا الى نتائج من شأنها أن تساعدنا على اختبار الفرضية التي صغناها.

جاءت النتائج المحصل عليها متشابهة لدى الحالتين من حيث الآثار التي تركتها التجربة الصدمية على التوظيف النفسي، فزمن وقوع الصدمة مرحلة المراهقة باعتبارها مرحلة حساسة، أظهر لنا كف و قلق لدى الحالتين، مع بروز تصورات صدمية تحمل معاني الخوف والشك و اللاأمن، فتلك التجربة جعلت من صورة الآخر تمثل الخطر، لأن قدرة الوالدين على حمايته والدفاع عنه كانت ضعيفة، خاصة إذا كان الموضوع المفقود هو الأب أول سلطة في حياة الفرد، في تلك المرحلة يكون المراهق في حاجة الى سلطة أبوية ليتمكن من تشكيل تقمصات جيدة تمكنه من اجتياز مرحلة المراهقة بشكل أفضل، هنا تستوقفنا أراء Damiani حيث يرى بأن أثر الحادث الصدمي مرهون بمستوى نضج الأنا و بمدى صداه في التنظيم الهوامي للطفل، إذ كلما كان الطفل صغيرا كلما كان خطر إصابة نموه النرجسي أكبر، ذلك أن حدوث الصدمة قبل أن يتمكن الأنا من تنظيم نماذج دفاعية كافية و ناجعة، يمكن أن يؤدي الى سلوكات عدوانية، فما دام الجهاز النفسي لا يتوفر على الوسائل الدفاعية الناجعة ضد القلق، فلا يبقى له سوى التفريغ السلوكي[32].

إن اللقاء مع واقع الموت أظهر لدى الحالتين أعراض تكرارية سادت الحياة الحلمية و الواقعية، مع ظهور سلوكات التجنب و ما يتوافق مع ما توصلت إليه دراسة سي موسي و آخرون 2002 أين أظهرت وجود إدراكات تكرارية و فشل العمل الإسقاطي و الإرصاني لدى

المصدومين، فإرصان تصورات تلك التجربة يقتضي عدم عودة الموقف الصدمي الى الجهاز النفسي بخصائصه الأصلية، و لكن في صور رمزية و هو ما لم يحدث لدى الحالتين. إسقاطات الحالتين من خلال الرائز الإسقاطي TAT تميزت بعدم تنوع السياقات الدفاعية أين ظهر استعمال كبير لسياقات التجنب C تحتوي على محتوى فوبي CP مع ظهور سياقات نرجسية CN تدل على عدم القدرة على استثمار الواقع الخارجي و بناء العلاقات الموضوعية، مما يترك الفرد منحصر في استثماراته الذاتية، واستعمال السياقات الهوسية CM التي تتمحور حول رغبة في الاستناد على الموضوع، لنلاحظ في المقام الثاني لجوء الى سياقات الرقابة A لتجنب الصراع الذي حرضته المادة الإسقاطية.

لقد بدا جليا من خلال الإنتاج الإسقاطي للحالتين ظهور كف شديد و قصص تميل الى القصر مع ظهور قصص مبنية للمجهول وعدم التعرف على الأشخاص و إقامة الروابط بينهم، و عدم استقرار التقمصات بسبب التردد حول الجنس و السن، و كانت مقروئية اللوحات ومقروئية البروتوكول بشكل عام سيئة، من خلال هذه النتائج يتضح لنا بأن التقمصات لدى الحالتين كانت هشة، وهو ما يحقق الفرضية التي صغناها في هذا البحث، و نخلص في الأخير الى النتيجة التالية:

- ❖ الأشخاص الذين عاشوا صدمة نفسية في مرحلة المراهقة لديهم تقمصات هشة.

خلاصة :

إن للتقمصات النفسية أهمية كبيرة في بناء شخصية الفرد و هيكلتها، وتحدد نوعية هذه التقمصات مصير شخصية الفرد في المستقبل، فمرونتها تمنحه قدرة على إرصان الصراعات التي تواجه جهازه النفسي وتسمح للفرد بالتكيف مع الواقع الداخلي، ثم القدرة على الاندماج والتفاعل بشكل جيد مع العالم الخارجي الموضوعي.

وعندما يواجه الفرد أحداث خارجية مهددة لحياته فإنه يعود الى مكتسباته الداخلية ليواجهها، أين يحدد مدى تجاوز الاستثمارات الأوديبية أو التمسك بها مصير شخصية الفرد، فإن وقعت مثل تلك الأحداث خلال فترة نمو حرجة مثل المراهقة التي تتميز بعدم التوازن نظرا للعمل النفسي الشاق الذي يقوم به المراهق، فأثرها يكون أكبر، حيث أن فشل السياق التقمصي في إرصان الصراع النفسي الداخلي، يجعل الأنا أكثر قابلية ليتأثر أثرا بالغا عندما يعيش تجربة عنيفة تقوم بكسر دفاعاته النفسية.

وقد خلصت هذه الدراسة الى أن تقمصات الأشخاص الذين عاشوا تجربة صدمية في مرحلة المراهقة تتميز بالهشاشة، و إنتاجهم الإسقاطي يميل نحو سياقات التجنب.

الهوامش:

1. فرويد سيجموند (1994)، **ما فوق مبدأ اللذة**، ترجمة إسحاق رمزي، دار المعارف، القاهرة ، الطبعة 5، ص 55.

2. Perron. R (1983), **L'agression et les autres**, Paris, Bordas.

3. Jeammet .Ph (2001), **Evolution des problématiques a l'adolescence**, France, groupe liason, p 01.

4. Braconnier (2004), **menasse de dégressivité, idées de vie, idées de mort, la déprissions en question chez l'adolescent**, paris, Masson, P 66.

5. Damiani. C (1997), **Les victimes, Violences publiques et crimes privés**, Paris, Bayard Editions, P151.

6. سي موسي عبد الرحمن ، رضوان زقار (2002)، **الصدمة والحداد عند الطفل والمراهق**: نظرة للاختبارات الإسقاطية، الجزائر، جمعية علم النفس.

7. ميكيري كريم (2008)، مذكرة ماجستير: **أثر التصورات العائلية على الراشدين الذين عايشوا أحداث صدمية في مرحلة المراهقة** ، جامعة الجزائر.

8. بلعباس حنان (2008) ، مذكرة ماجستير: **نوعية التقمصات لدى المراهقات يتيمات الأب** ، جامعة الجزائر.

9. لابلانش، بونتاليس (1985)، **معجم مصطلحات التحليل النفسي**، ترجمة مصطفى حجازي، بيروت، المؤسسة الجامعية للنشر و التوزيع، ص 300.

10. De Clercq M, Lebigot F(2001), **Les traumatismes psychiques** , Paris, Masson, p 04.

11. Louis Crocq (1999), **les traumatismes psychique de guerre**, Paris , odile jacob.

12. سي موسي، رضوان زقار، نفس المرجع.

13. فرويد سيجموند، 1994، نفس المرجع، ص 55.

14. فرويد سيجموند، 1994، نفس المرجع، ص 61.

15. Perron. R (1983), ibid.

16. APA (2013), **diagnostic and statistical manual of mental disorders, DSM-5**, London, British Library, p271-272.

17. لابلانش، بونتاليس، نفس المرجع، ص 187.

18. فرويد سيجموند (2006)، **علم نفس الجماهير وتحليل الأنا**، ترجمة جورج طرابيشي، بيروت، دار الطليعة، ص83.

19. فرويد سيجموند (2006)، نفس المرجع، ص 88.

20. Perron .R, M PERRON – BORELLI (1994), **Le complexe d'Œdipe**, Paris, PUF, 1ère édition, p20.

21. حب الله عدنان (2004)، **التحليل النفسي للرجولة والأنوثة**: من فرويد الى لاكان، الجزائر، منشورات ANEP، ص204.

22. Gutton Philippe (2002), **violence et adolescence**, Paris, presse édition, p 55.

23. Jeammet Ph, ibid, p 01.

24. Kestemberg .E (1999): **l'identité et l'identification chez les adolescents**, In psychiatrie de l'enfant, N°2, T.5, p47.

25. Si Mousi , Roger Perron (2011) , **Problématiques de l'adolescence** , Alger, OPU, p22.

26. Emmanuelli Méchel (2009), **l'adolescence**, Paris , PUF, 2 eme édition, 28.

27. موريس أنجرس (2006)، **منهجية البحث العلمي في العلوم الإنسانية**، ترجمة بوزيد صحراوي وآخرون، الجزائر، دار القصبة للنشر، ص 99.

28. Perron. R (1989), **Problèmes de la presse dans les démarches de la psychologie clinique,** Paris, édition PUF, p 69.

29. شرادي نادية (2011)، **الحداد النفسي إزاء موضوع الحب الأولي وعلاقته بالتوافق الزواجي**، مجلة دراسات نفسية تربوية، الجزائر، ص 106.

30. Shentoub .V et al (1990), **Manuel d'utilisation du TAT**, approche psychanalytique, Paris, Dunod.

31. Marty,Chagnon (2006) , **Identité et Identification à l'adolescence**, Paris ,EMC, p 08.

32. Damiani . C, ibid, p 151.